ما الترجمة؟
الترجمة بين النقل والتأويل

يوسف سلامة

الخاصّ والمشترك

لو شاء المرء أن يكتب تاريخاً للترجمة لما كان تحقيقُ مثل هذا الأمر شيئاً ميسوراً. ذلك لأنّ تاريخ الترجمة هو، بمعنى مّا، تاريخُ الإنسانية ذاتها، أو هو على الأصح تاريخٌ مقترنٌ باللحظة التي أدركتْ فيها الإنسانيةُ وعيَها بذاتها. فالوعي بالذات هو وعي بالآخر، وعيٌ بالاختلاف والمغايرة، وعيٌ بأخريةٍ يستعصي على الذات أن تبلغها دون وساطة. وهذا الوعيُ الآخرُ بدوره ـ الذي ينطوي على وعيٍ مماثلٍ بالذات ـ يقف عاجزاً عن التعرف على الآخر أو التعرفِ على الذات في الآخر إلاّ عبر تلك الوساطة بين هذين الوعيين... وهي وساطة لا توحِّدُ في ما بينهما، بل تجعلهما قادريْن على الدخول في تجربة مشتركة، أو على الانخراط في ضربٍ من التفاعل الخلاّق، دون أن يفقد أيٌّ منهما هويته الذاتية.

وأما المعجزة التي من شأنها أن تحقق الوساطة بين كل صور الوعي الذاتيّ وصورة الآخرية، فليست إلاّ «الترجمة» بالمعنى الواسع للكلمة. ولئن كانت اللغةُ هي أرقى أشكال الترجمة وأخصبها، فإنه لا يمكنها أن تُعدّ شكلها الوحيدَ الممكن؛ فهناك الكثير مما هو واقعٌ في نطاقها من غير أن يكون مقترناً اقتراناً تاماً باللغة المحكية والمكتوبة والمقروءة. ومع ذلك تظل تجربةُ الترجمة مرتبطةً بصورة جوهرية بفضاء اللغة، وذلك لكونها الابتكارَ الإنسانيَّ الأكبرَ الذي أضحى بفضله للعالم وللأشياء وللمفاهيم وللعواطف تاريخٌ كليٌّ يدلّ على القيمة المشتركة (أو التي يُفترض أن تكون مشتركةً) داخل التجارب الإنسانية المتنوّعة التي يرتبط كلٌّ منها بتاريخ وعيٍ ذاتيٍّ كليٍّ، أي وعيِ أمةٍ مّا، ولكنه مع ذلك يكافح لأنْ يكونَ معنى كلياً يربط بينَ تجارب الأمم المختلفة.

أما فعلُ الترجمة فيستمدّ شرعيته من الافتراض بأنّ هناك عناصرَ كليةً، أو شبهَ كليةٍ، مشتركةً بين صور الوعي الذاتيّ الكليّ التي تنتسب إلى الأمم المختلفة. غير أنّ الممارسة الفعلية للترجمة تكشف عن وجود عنصر الخصوصية والتمايز، وهو ما ينفرد به كلُّ وعيٍ «ذاتيٍ كليٍّ»، أيْ وعي هذه الأمة أو تلك. وما الصعوبات التي يواجهها المترجمُ في التعبير عن المعاني والتجارب والتصورات والعواطف التي ينطوي عليها نصٌّ معينٌ بلغةٍ محددةٍ في لغة أخرى إلا الشاهدُ على أنّ الترجمة إنما هي ضربٌ من النُّوسان بين كونها «نقلاً» وكونها «تأويلاً».

لو صحّ أن هناك عناصرَ مشتركةً في التجارب الإنسانية بين كل الأمم في كل الحقب، لجاز الحديثُ عن الترجمة بوصفها نقلاً. ولكنْ لمّا كانت الشواهدُ التي يمكن أن نسوقها في هذا الاتجاه أضعفَ من أن تُذكر، فقد أصبح من الضروريّ والمنطقيّ الحديثُ عن بعدٍ آخر في الترجمة هو بُعْد «التأويل». وهذا يعني أنّ أدقّ تعريفٍ يمكن أن يُقدَّم للترجمة يتمثل في قولنا: إنّها نقلُ ما يُفترض أن يكون كلّياً إلى تجربةٍ جزئيةٍ أو خاصةٍ هي تجربةُ الأمة التي يقوم المترجِمُ بنقل النصّ الأصليّ إلى لغتها. ولمّا كان النقلُ المطابِقُ من لغةٍ إلى أخرى ضرباً من المستحيل، فقد كانت الترجمةُ في حقيقتها ضرباً من **التأويل**. وعلى هذا التأويل ألاّ يشير إلى معنى واحد فقط، لأنّ في ذلك إفقاراً للنص، بل يشير أولاً وبالذات إلى كلّ ما مِنْ شأنِهِ أن يَدْفع بالنصّ نحو العمق والغنى والانفتاح. فالتأويل الحقيقي إنما هو قراءةٌ تتلمس الاتجاهاتِ الباطنيةَ للنص في تفاعلها مع قارئٍ بصير... الأمر الذي يسمح في النهاية للترجمة بأن تكون نوعاً من السَّبْر في الاتجاهات الأساسية للنص، غير أنها اتجاهاتٌ كانت مطويةً وخفيةً **قبل** القراءة التي سمحتْ بترجمة النص أو بقراءته وتأويله.

وبهذا تكون الترجمة ـ بصرف النظر عن تصورنا التفصيليّ لها ـ نشاطاً إنسانياً أمثلياً يحيل جوهرُهُ على تجربة التواصل بين الأمم والشعوب. وهو ما يسمح بالقول عن الترجمة: إنها عنصرٌ مقوِّمٌ في التجربة الإنسانية، لا يتطرق الشكُّ إلى قيمته حتى لو افترضنا أنّ المستقبلَ أو الآخر يتقن اللغة التي كُتب بها النصُّ؛ وذلك لأنّ المستقبل ـ حتى في هذه الحالة ـ سيظلّ في تعامله مع هذا النصّ قارئاً أو مُؤوِّلاً أو مترجِماً.

وحتى داخل إطار الفضاء الثقافيّ الواحد، فإنّ تجربة القراءة وما يرتبط بها من تأويلٍ تظل جزءاً لا يتجزأ من الفعل المنتج للثقافة. وذلك لأنّ المقدرة على قراءة نصٍّ ما داخل

الفضاء اللغويّ والثقافيّ نفسه تتفاوت وتتباين بتفاوت الأفراد وتباينهم في المقدرات والمواهب والإعداد المنهجيّ والعمق المعرفيّ. وأما عندما يتم الانتقالُ بالنصّ من فضاءٍ ثقافيٍّ إلى فضاءٍ ثقافيّ آخر، فإنّ عمليات التأويل تصبح أشدّ جذريةً وتعقيداً، لأنها غَدَتْ تعبِّر عن قراءة المترجِم لنصٍّ كُتِبَ بلغةٍ معينةٍ عبر لغةٍ أخرى لها خصوصياتُها اللغويةُ وتاريخُها الثقافيُّ الخاصُّ الذي يَخْلع عليها شخصيةً وعبقريةً تخصّانها... الأمرُ الذي يجعل نقلَ النصّ من لغة إلى أخرى فعلاً لا يمكن تصوُّرُهُ بمعزلٍ عن آليات القراءة والتأويل بصفة عامة. ولعلّ هذا الارتباط الوثيق بين الترجمة من ناحية وقراءة النصوص وتأويلها من ناحية أخرى هو ما جعل الكثيرين لا يعترفون بأنّ الترجمة «ممكنة، والأكثر من هؤلاء مَنْ يستنكرون ممارستها. وأشد ما يكون الاستنكارُ وعدمُ الاعتراف عندما يتعلق الأمرُ بترجمة بعض الأنماط النصيّة، مثل لغة الكتب المقدسة ولغة الشعر»[1]...

لا تبلغ الترجمة منتهاها إلا عندما تتحول إلى خطاب يمتلك مقوماته الخاصة بحيث يستطيع أيُّ قارئ أن ينتج نصاً ابتداءً منه

عناصر الترجمة

ولو عدنا إلى ماهية الترجمة من حيث هي عمليةٌ فنيّةٌ وجماليّةٌ وإبداعيّة، لقلنا إنها تتكون من ستة عناصر أساسية متكاملة ومترابطة لأنها بمجموعها هي التي تسمح بتحوّل النص من لغته الأصلية إلى اللغة التي يترجَم إليها، مع بقائه محتفظاً بالشيء الكثير من قيمته الفنية والجماليّة. وهذه العناصر هي على التوالي:

١ ـ اللغة ـ المَصْدَر، ٢ ـ النص ـ المَصْدَر، ٣ ـ المترجِم، ٤ ـ النص المترجَم، ٥ ـ لغة الترجمة، ٦ ـ اللغة المستقبلة.

واللغةُ ـ المصدرُ هي اللغة التي يقع اختيارُ المترجِم على أحد نصوصها لترجمته إلى لغة أخرى، مستنداً في اختياره إلى مسوِّغات هو وحدَه المسؤولُ عن تبريرها والدفاع عنها بقصد إقناع المتلقّين بقيمة النص وأهمية نقله من لغة المَصْدَر إلى اللغة المستقبلة. وعلى ذلك فإنّ اللغة ـ المصدر هي: «اللغة التي ينتمي إليها النصُّ المرادُ ترجمتُه، وهي تجريدٌ ناتجٌ عن دراسة نصوص تلك اللغة، ولا علاقة لها بالترجمة أصلاً. فاللغة ـ المصدرُ سابقةٌ للترجمة، ودراستُها سابقةٌ لدراسة لغة الترجمة»[2].

أما النص ـ المصدرَ، فهو الجزء الذي وقع عليه اختيارُ المترجِم من اللغة ـ المصدر من أجل نقله إلى لغة أخرى. وبوسعنا القول إنه «إذا كانت اللغةُ ـ المصدر هي الأرضيةَ التي تنطلق منها الترجمةُ، والمرجعَ الأساسيَّ في الحكم على ما ينتجه المترجِمُ، فإنّ النصَّ ـ المصدرَ هو النقطة المركزية المحدّدة للبدء في عملية الترجمة. كما أنّ الرجوع إلى هذه النقطة رجوعاً حرفياً هو رجوعٌ إلى النص في تركيبه ومعناه، في حين يكون الرجوعُ إلى اللغة ـ المصدر رجوعاً إلى قواعدها وقوانينها(...). ويشكّل فهمُ النصّ ـ المصدر أولَ خطوةٍ يقوم بها المترجِمُ في عملية الترجمة»[3].

وفيما يتعلق بالنص المترجَم، فهو المادة اللغوية التي بوسعنا دراستُها للوقوف على قيمة عمل المترجِم، وهو ما لن يتأتّى لنا القيام به إلا بمضاهاة النص ـ المصدر بالنص المُترجَم الذي تم نقلُهُ إلى لغة مستقبلة. وعلى ذلك يمكننا القول: «إذا كانت نقطةُ البدء في عملية الترجمة هي النص ـ المصدر، فإنّ النصّ المُترجَم هو المادة اللغوية الفعلية والمحدودةُ الناتجةُ عن عملية الترجمة. فالنصُّ المُترجَم هو مادةٌ لغويةٌ أُنتجتْ فعلاً كجزء من عملية الترجمة... لهذا يفترض النصُّ المُتَرجَمُ أسبقيّةَ اللغة ـ المصدر، والنصِّ ـ المصدر، والمترجِم»[4]. وأما أشد العناصر أهميةً التي نلتقي بها عند تحوُّل النصّ ـ المصدر إلى نص مترجَم، فيتمثل في كون النص المترجَم قد أصبح موجَّهاً إلى متلقّين آخرين لم يكن النصُّ ـ المصدرُ موجَّهاً إليهم أصلاً[5]. وذلك راجعٌ إلى الانتقال اللغويّ من لغة إلى أخرى.

وأما اللغة المستقبِلة فهي المادة اللغوية التي انتجتْها الترجمةُ نتيجةً لتحوُّل النصّ ـ المصدَر من اللغة المصدر إلى النص المُترجَم. ولا بد لهذا النص المترجَم حتى يتذوقه الناطقون باللغة المستقبِلة من أن «يصاغ باستخدام المنظومة اللغوية (للُّغةِ المستقبِلة) بنحوها ومفرداتها وتراكيبها المألوفةِ إلخ...، ويحاول أن يقترب من المعايير المألوفة أو الشائعة فيها. وكما هو الأمر بالنسبة للُّغة ـ المصدر، فاللغة المستقبلة هي لغةٌ أصيلةٌ لها وجودُها ونصوصُها وتاريخُها بغضّ النظر عن طبيعة الترجمة»[6].

وأخيراً فإنّ المترجِم هو أهمّ العناصر في عملية الترجمة بأكملها. فهو الشخص الذي تلتقي في جهوده جميعُ العوامل الأساسية لعملية الترجمة. والحق «أنّ دراسة الترجمة ولغة الترجمة هي دراسةُ ما لدى المترجِم من قدرةٍ لغوية، وما يُنتِجه فعلاً من نصوص مترجَمة. فعند المترجِم تتوفر المعرفةُ اللازمة للغتيْن أو أكثر، وعنده المهارةُ في التنقل بين اللغات، وهو المفسِّر للنّص المُترجَم، وتفسيرُهُ يُحدِّد طبيعةَ المعنى الذي يترجمه ويقرأه القرّاءُ بلغةٍ غيرِ لغةِ النصّ ـ المصدر»[7].

ومن كل ما تقدم يتبين أنّ وظيفة المترجم لا تقف عند حد نقل مادةٍ لغويةٍ إلى مادةٍ لغويةٍ أخرى، بل إنّ جوهر وظيفته كامنٌ في أنّه «هو المؤوِّلُ بالمعنى الهيرميونيطيقيّ» ويجب تحديدُ هذه الوظيفة للمترجِم بالمعنى الضيّق للمدرسة التفسيرية الهيرميونيطيقية... فالوظيفة التفسيرية موجودةٌ نظرياً على الأقل في جميع أنواع الترجمة»[8]. وعلى ذلك يمكننا المضيّ إلى القول عن المترجِم: إنّه مؤلِّفٌ ثانٍ لا مجرد ناقل. وما يبرِّر ذلك هو الاختيار الأوليّ للنصّ الذي هو من عمل المترجِم على وجه الحصر، ولكونه قارئاً لما اختار من النصوص. وبذلك لا يخرج العمل المُترجَم إلى مستقبلِهِ إلاّ بعد أن يكون مؤوَّلاً. أي أنّ ذاتَ المترجِم تُنجز عمليةً مثلثةً:

---

١ ـ عمر شيخ الشباب: **التأويل ولغة الترجمة**، دار الهجرة، بيروت، ١٩٨٩، ص ٩.
٢، ٣، ٤، ٥، ٦، ٧، ٨ ـ المرجع نفسه ص ١٩، ٢٢، ٢٦، ٢٥، ٣١، ٢٢، ٢٣.

فهي تستسلم لانفتاح النص؛ ومن جهة أخرى فإنّ مقاصد الذات التي اختارتِ النصَّ من حيث المبدأ كي تترجمه تحاول أن تهتدي إلى ذاتها في صميم النص ـ المصدر؛ ومن جهة ثالثة فإنّ التعبير عن المادة اللغوية ذاتها بلغةٍ أخرى يَفْرض على المادة الأصلية نوعاً من التحول الناجم عن ماهية اللغة الثانية التي تنفرد بنظامٍ لغويٍّ فريدٍ لا بد له من التأثير في طبيعة المادة نفسها التي يتم التعبيرُ عنها بهذه اللغة الجديدة.

الترجمة والتأويل

وينبغي ألا يَفهم أحدٌ من ذلك أنّ من حقِّ المترجمِ التصرفَ بمعنى النص الأصلي حسبما يريد، أو أن يزوِّد المعنى الذي ينطوي عليه النصُّ، بل على العكس من ذلك تماماً. إذ يتعين على المترجم «المحافظة على هذا المعنى، ولكنْ لمّا كان عليه أن يفهم في عالمِ لغةٍ أخرى، وجب أن يؤدّي فيها بطريقة مختلفة. وعليه، فإنّ كل ترجمةٍ تفسيرٌ، بل إنّ بإمكاننا القول إنها دائماً اكتمالُ التفسير الذي اضفاه المترجمُ على الكلمة التي عَرَضَتْ له»[1].

على أنّ اكتمال التفسير هذا لا يعني أبداً نوعاً من التكرار الذي يقلِّد المترجمُ فيه السياقَ النفسانيَّ للمؤلِّفِ صاحبِ النصّ الأصليّ، بل يشير اكتمالُ التفسير ههنا إلى أنّ هناك ضروباً من التفاعل الخلاّق بين المترجم والنصّ توفِّرها للمترجمِ قراءتُهُ المعمَّقةُ للنص. ولعل هذا ما يفسِّر لنا إخفاقَ الترجماتِ التي تتوخى أن تنتج لنا نسخةً حرفيةً عن النص، فيغيب منها نتيجةً لذلك كلُّ آثار البصيرة التي يجب على المترجم أن يستنير بها في قراءته للنصوص وترجمتها. ولذا يرى البعض أنّ الترجمة «ليست مجرد انبعاث للسياق النفسانيّ الأصليّ لصياغته، لكنها إعادةُ خلقٍ للنصّ توجِّهها عمليةُ فهمٍ ما قيل فيه حتى لو نجح المترجمُ في جعل حياة المؤلف وعواطفه وكأنها نابعة منه»[2].

ثمة أمور أكثر أهميةً في إنتاج النص المُتَرجَم يتعين مواجهتها. وعنصرُ التفسير أو التأويل يسمح لنا بالقول عن الترجمة بأنها «إضاءة ـ إضافة، وعلى كل مترجم أن يأخذ على عاتقه هذه الإضاءة. كذلك من البديهي أنه لا يسعه أن يترك شيئاً معلّقاً مما يبدو له غامضاً. إنّ عليه أن يكشف اللونَ لأن هناك حالاتٍ قصوى يتضمن فيها النصُّ الأصليُّ شيئاً مّا غامضاً حتى بالنسبة للقارئ الأصليّ. ولكنّ حالات التأويل القصوى هذه هي بالضبط التي يبدو فيها بوضوح الإكراهُ الذي يتعرض له المترجم. وعليه ههنا أن يُذْعن، أن يقول بوضوح، كيفَ نفهم. ولكنْ ما دام تعذّر عليه تقديمُ تعبيرٍ حقيقيٍّ عن جميع أبعاد نصه، فهذا يعني بالنسبة إليه تنازلاً مستمراً»[3]. ليس بوسع المترجم أن يترك أمراً معلّقاً، إذ لا بد له من قول شيء يجعلنا نفهم. وما يقوله في الحقيقة هو تأويلُ المترجمِ أو قراءتُهُ. ومن الأمثلة الكلاسيكية على عودة القرّاء الأصليين إلى الترجمة ـ من أجل مقاربة النص واختراق نقاطه الغامضة ـ كتاب **علم المنطق** للفيلسوف الألماني هيغل. إذ لا يسع القارئَ الألمانيَّ الجادَّ إذا ما شرع في قراءة هذا النص الهيغليّ المُشْكِلِ إلا أن يضع الترجمةَ الإنجليزيةَ لهذا النصّ على يمينه، بينما تكون الترجمةُ الفرنسية على شماله، حتى يقف على القراءات المختلفة لهذا النص في أكثر من لغة وأكثر من ترجمة. فإذا ما علمنا أنّ لهذا الكتاب ترجمتيْن إنجليزيتيْن وترجمةً فرنسيةً واحدةً على حد علمنا، لَتبينتْ لنا أهميةُ القراءة الجادة التي تُنتج ترجمةً لا يمكن إلا أن تكون مستنِدَةً إلى نوعٍ من التفسير أو التأويل. ولذلك جاز للقائل عن المترجم أن يقول: «وحدَه المترجمُ الذي يحمل إلى اللغة الشيءَ الذي يُبرزه النصُّ، أي يجد لغةً لا تكون لغَتَهُ وحسب، بل لغة ملائمة للنص الأصليّ، وحده يستطيع فعلاً إعادة الخلق: فمهمةُ إعادةِ الخلق، أي مهمةُ المترجم، لا تختلف نوعياً عن المهمة التأويليّة العامة التي يطرحها أيُّ نصٍ آخر؛ فليس ثمة فرق إلا في الدرجة»[4].

وعلى ذلك فالترجمة لا تنفصل عن عملية التأويل، لأنها ثمرةٌ للقراءة أصلاً. وليس من معنى لكوننا نقرأ إلا أننا «ننتج خطاباً جديداً، ونربطه بالنص المقروء. ولهذا الارتباط بين الخطاب القارئ وبين الخطاب المقروء ـ داخل التكوين الذاتيّ للنص ذاته ـ قدرة أصيلة على استعادة الخطاب لذاته بشكل متجدد، [وهذه القدرة] هي التي تعطي خاصيته المفتوحة على الدوام: والتأويل هو النهاية الفعليّة لهذا الارتباط بين خطابٍ وآخر وهذه الاستعادة المتجددة»[5]. ومن ذلك يتبين أنّ الترجمة تنتج خطاباً ناجماً عن قراءة المترجمِ للنصّ الأصليّ. وتبلغ هذه القراءةُ منتهاها عندما تتحول إلى تأويل، أيْ إلى نصّ أو قول أو خطاب يمتلك مقوماته الخاصة تماماً. وهذا يعني أنّ بوسع أيّ قارئ أن ينتج نصاً جديداً ابتداءً منه. ولم يكن ذلك بالأمر الممكن إلا لأنّ القراءة الجديدة قد حققتْ من الفاعلية القدرَ الذي يكفي لكي تتحول إلى نص أو خطاب.

ولا شك أنّ تأويل النص الذي أنتج خطاباً جديداً أو نصاً جديداً لا يمكن تصوُّرُهُ منفصلاً عن تأويل الذات لذاتها. ذلك أنّ النص يوفر فرصةً للذات لتتعمق تعرُّفَها على نفسها، مثلما أنّ الذات أيضاً بوسعها أن تفيض من لدن ذاتها على النص إشعاعاتٍ لم يكن من السهل اكتشافُها فيه لولا فاعليةُ الذات وفعلُها داخل هذا النص المفتوح. ولذا كان «تأويلُ النص يجد اكتمالَهُ داخل تأويل الذات المؤوِّلة لذاتها، هذه الذات التي ـ من حيث ابتداءُ تأويلها للنص فصاعداً ـ تفهم ذاتها بشكل أحسن ومغاير وتبدأ في تحقيق ذلك الفهم الذاتي»[6]. فليس النص من منظور الذات إلا مناسبةً تسمح لها بإنتاج الخطاب، أو هو بعبارة أخرى مناسبة كي تحقق الذاتُ عبره مزيداً من الوعي الذاتي بذاتها في آخريةٍ هي في صميمها وعيٌ ذاتيٌّ آخر كما ذكرنا سابقاً.

---

١ ـ هانس جورج غدامير: «نص من كتاب **الحقيقة والمنهج**»، ترجمة آمال أبي سليمان، مجلة **العرب والفكر العالمي**، العدد الثالث، صيف ١٩٨٨، بيروت، ص ٢٠ ـ ٢١.

٢، ٣، ٤ ـ المصدر نفسه، ص ٢٢ و ٢٣.

٥ ـ بول ريكور: «النص والتأويل»، ترجمة منصف عبد الحق، مجلة **العرب والفكر العالمي**، العدد الثالث، بيروت، ١٩٨٨، ص ٤٧.

٦ ـ المصدر نفسه، ص ٤٧.

ولئن دلّ كلُّ ما تقدم على شيء، فإنما يدلّ على أنّ الترجمة هي واحدة من بين أهم السبل التي يفزع إليها الوعيُ الذاتيُّ الإنساني ـ الفرديُّ والجماعيُّ ـ بقصد تحقيق التواصل بينه وبين الوعي الذاتيّ الآخر. وهذا ما يسمح لنا بالقول عن الترجمة، التي هي في حقيقتها تأويلٌ إنها تضطلع بعملية تحويلٍ «ذلك الغريب المتباعد إلى شيءٍ خاصٍ بالذات ومتملّك لديها»[1]. وعلى ذلك، فلو شاء المرءُ أن يتحدث عن ماهية الترجمة مجملاً، لأمكنه أن يقرر بأنها «نمطٌ أمثليٌّ» من أنماط التواصل بين الأفراد والجماعات والثقافات والحضارات، وأنّ من شأنها أن توطّد الحوارَ بين الأفراد وبين المجتمعات الإنسانية... وذلك هو رأي الذين ينظرون إلى قضية الترجمة نظرةَ انفتاحٍ بعيدةً عن التعصب القوميّ والدينيّ والعرقيّ، بل عن أي شكلٍ آخر من أشكال التعصب.

الترجمة... والمؤامرة؟

غير أنّ هذه النظرة تواجَه بمعارضة شديدة جداً من جانب بعض التيارات السياسيّة والاتجاهات الإيديولوجية في فهم الدين والانتماء القوميّ في إطار الفكر العربيّ المعاصر. فثمة مَنْ يذهب إلى أن هناك خطةً مسمومةً «قد نَقَلَتْ إلى آفاق الفكر الإسلاميّ واللغة العربية حصيلةً ضخمةً من الترجمات القصصية المكشوفة والمفاهيم المادية الملحِدة»[2]. وعندما يقارن هؤلاء بين حركة الترجمة في القرون الهجرية الأولى وحركة الترجمة العربية الحديثة، يذهبون إلى أنه على الرغم من أنّ العرب كانوا يملكون أمرَ دولتهم أيامَ حركة الترجمة الأولى، «فقد تُرجمتْ كتبُ الفلسفات والوثنيات واحدثتْ شرخاً هائلاً وصَدْعاً ضخماً لم تستطع حركةُ الأصالة دفعَهُ إلا بعد معركةٍ طويلةٍ استمرت مدى قرنين من الزمان»[3]. وعلى العكس من ذلك تماماً، لم يكن للعرب في نظر هؤلاء، عندما بدأتْ حركةُ الترجمة الحديثة، سلطةٌ على مقدّراتهم ولا حريةَ لهم في اتخاذ قراراتهم. ولذا «استطاعت حركةُ التغريب والغزو الثقافيّ أن تسيطر وأن تترجِم لهم ـ أيْ للعرب ـ ما ليسوا في حاجة إليه أصلاً، ونحّتْ عنهم ما كانوا في حاجة إليه، وكانت حفيّة بأن تترجم لهم الفكرَ الوثنيّ والفلسفاتِ والمذاهبَ الماديّة والأيديولوجياتِ المتضاربةَ، في حين أنها حالت بينهم وبين ترجمة العلوم والتكنولوجيا»[4].

وهكذا فإنّ حركة الترجمة الأولى مدانة لأنها تَرجمتِ الأفكار الفلسفيةَ وما يُزعم من ارتباطٍ بينها وبين الكفر والإلحاد. كما أنّ حركة الترجمة الجديدة مدانةٌ أيضاً لأنها نقلتْ إلى العرب من الثقافة ما لم يكونوا في حاجة إليه، بل وما ينبغي ألا يطّلعوا عليه، لأنه مخالف لعقيدتهم ومباينٌ لدينهم. وهكذا نجد أنّ أصحاب هذا المنزع الإيديولوجيّ يتصورون نطاقاً محدوداً للفكر وإطاراً مقيّداً للخبرة لا يجوز للعرب أن يتخطوه، لأنّهم على الصراط المستقيم ما أقاموا في هذا الإطار ولبثوا في هذا القيد.

ولكن أليس هذا مما تأباه الفطرةُ ويتناقض مع طبيعة الحياة وماهية الخبرة الإنسانية؟ ولماذا يبقى الإنسانُ حبيساً في هذا القيد ورهيناً لتجربة واحدة؟ الجواب، في نظر دعاة هذا التيار، هو أنّ من واجبنا «أن نحرص على حماية شخصيتنا القرآنية من أن تنصهر في العالمية أو أن تندمج في الأممية أو أن تُحتوى في ذلك الركام البشريّ الزائف»[5]. فالمطلب الجوهري، بحسب أولئك الدعاة، هو الانعزالُ عن العصر في الماضي والحاضر حتى تبقى الذاتيةُ قرآنيةً لا تشوبها شائبةٌ من العالمية أو الأممية أو من الركام البشريّ الزائف.

ولكنْ مَنْ ذا الذي يستطيع أن يزعم أن بوسعه الانعزالَ عن العالم من حوله؟ ومَنْ ذا الذي يستطيع أن يصدِّق أنّ ذاته القومية نقيةٌ شفّافةٌ لم تتأثر بغيرها من الأمم أو هي لم تؤثّر في غيرها؟ نحن هنا بإزاء تصوراتٍ عتيقةٍ تخفي عن نفسها حقيقةَ العصر وتخادع ذاتها إذ تحاول أن تقيم عالماً متخيّلاً من النقاء والثبات والماهيات الأبدية اللاتاريخية. ومهما يكن من أمر هذا العالم المتخيَّل فقد مضى وانقضى، ومهما حاول المرءُ أن يستعيد الماضي فلن يستعيده إلا على مستوى المتخيّل. ذلك لأنّ الشيء الوحيد الذي يواجهنا ويغمرنا ويستعصي علينا العيشُ خارجَه إنما هو الراهنُ والحاضرُ، ولا شيء غير ذلك.

دمشق

في العدد المقبل

ريشار جاكمون:

الأدب العربي في مصر وقضايا الترجمة ـ من عصر النهضة إلى زمن العولمة

ملف الترجمة II

---

١ ـ المصدر نفسه، ص ٤٧.

٢ ـ أنور الجندي: **محاذير وأخطار في مواجهة إحياء التراث والترجمة من الفكر الغربي**، دار بو سلامة، تونس، ١٩٨٥، ص ٧.

٣، ٤، ٥ ـ المرجع نفسه، ص ٢٠ و٢٦.